٤ ـ الزندقة
فى عهد المهدي العباسى

الأستاذ محمد خليفة التونسى

ولقد حاول الفرس مراراً الإستقلال عن العرب وطرح حكمهم ودينهم منذ ملكوهم ، وقد اختفت هذه المحاولات أولا بعد خيبتهم فيها — كما قدمنا — ثم عادت إلى الظهور فى أواخر الدولة الأموية . والقارىء لتاريخ عمر وعثمان وعلى والدولة الأموية فى الكتب المبسوطة كتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى والكامل لابن الأثير وكتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون وغير ذلك تهوله كثرة انتفاضات الفرس على العرب فى البلاد الفارسية ، مما يدل على أن الاستقلال كان وسواسا لازبا فى عقول سادة الفرس .

وما أظن أبا مسلم إلا بطلا فارسيا كان يرمى إلى هدم السلطان العربى والإسلام ، وما لسبب غير ذلك حول أبو مسلم الملك عن العلويين إلى العباسيين ليبقى فى يده ، إلى جانب قوة الجيوش ، قوة الحجة ضد العباسيين بأن العلويين أحق منهم بالخلافة مادام الأمر أمر قرابة من النبي[1] . وما ثار بعده تلميذه سنباذ وثارت الراوندية إلا لهذا الغرض ، وما أبرىء البرامكة من الطمع فى هذا الاستقلال مما دعا الرشيد إلى نكبتهم ، وما استعان العباسيون بهم إلا وهم يحذرونهم ، ويتخلصون منهم فى الآونة المناسبة ، ولا أهملوا العرب إلا بعد أن يئسوا منهم[2] ، ومع ذلك قربوا العرب وأنهضوهم حين خافوا نزوات الفرس ليضربوا هؤلاء بأولئك ، وأولئك بهؤلاء حذرا من الفريقين . وما كان النزاع بين الأمين والمأمون إلا نزاعا بين الفريقين ، ولا كانت استعانة للمعتصم ومن بعده بالترك إلا عن سوء ظن بهما معا مما أدى إلى ازدياد نفوذ الترك على نفوذهما .

غير أن الفرس لم يتوانوا فى طلب الإستقلال حتى ظفروا به على يد الدولة البويهية (٣٢٤ — ٤٤٧ هـ) فقد أكثر العباسيون طوال القرن الثالث الهجرى من إقطاع الفرس ولايات المشرق طعمة لهم ولأخلافهم ، وهب دهاة الفرس ينشئون فى فارس إمارات وطنية ، ولكنهم حينما استعادوا بعض أملاكهم وجدوا الإسلام قد أتى على المجوسية ، واللغة العربية كادت تهزم الفارسية ، فأنابوا إلى الخليفة لأنه الحاكم الشرعى الذى تجب طاعته ، ودعوا إلى نصرته استدراجا للعامة تحت سلطانهم ، ومع غلبة الإسلام على مجوسيتهم لم يقض على عصبيتهم ، فلما استقلوا بالولايات شرعوا فى تجديد لغتهم ونقل الثقافة العربية إليها فنجحوا فى تجديدها كثيرا وخابوا فى نقل الثقافة إليها لأنها كانت قد انحطت بإهمالها زمنا طويلا .

ولقد كان الفرس البويهيون يحكمون بلاد الخلافة حتى بغداد عاصمة الدولة العباسية .

ويعنينا هنا أمر آخر أهم من كل ما تقدم هو أن العصبية الفارسية حملت الفرس على أن يحافظوا على كل ما هو فارسى ، ويؤثروه على كل ما هو عربى ومن ذلك ديانتهم المجوسية القديمة التى تفرقت إلى نحل مختلفة قبل ظهور الإسلام .

ما من شك فى أن كثيرا منهم قد دخلوا فى الإسلام مخلصين واعتنقوه عن إيمان ، واستطاعوا إلى حد بعيد أن يتخلوا عن ديانتهم القديمة ، ولكن مما لا شك فيه أن كثيرا منهم أيضاً أبطنوا المجوسية وأظهروا الإسلام وأسباب ذلك كثيرة لا يعنينا هنا الكلام فيها . وما من شك فى أن كثيرين دخلوا فى الإسلام مخلصين ولكنهم لم يستطيعوا التخلى عن الميراث الذى تركته فى عقولهم الديانة القديمة ، وما من شك فى أن كثيرا منهم لم يكونوا يؤمنون بالإسلام ولا بالديانة القديمة فى قلوبهم ولكنهم تمسكوا بالديانة القديمة لأنها ميراث لهم قديم يدفعهم وقوف العرب بمفاخرهم أمامهم إلى التمسك به ، فقد اعتبر العرب أنفسهم جيلا يمتاز على سائر الأجيال ، ووضعوا أنفسهم فى موضع سام ، ووضعوا كل من عداهم فى موضع وضيع ، وسموا أنفسهم العرب ، وسموا كل من عداهم العجم ، وأظهروا مفاخرهم يتجدون بها العجم جميعا ، وبرز لهم العجم فتحدوهم بمفاخرهم ، وكثر احتكاك هؤلاء بهؤلاء فى كل مكان وامتدت الملاحاة والمفاخرة حتى عاب العجم

(١) و (٢) انظر فى كل ذلك مقالتنا « الزندقة فى عهد المهدى العباسى » الرسالة ٦٣٧ .

على العرب مثلا إمساك خطبائهم بالعصا ، ورد من كانوا فى صف العرب عليهم ذلك فعدوه مفخرة[١] ، وكثرت مجالس المناظرة بين العرب والموالى ولاسيما الفرس للأسباب السابقة ، ولما كان للفرس من سلطان فى أيام العباسيين وكان الفريقان يتبادلان الإحتقار والتفاخر ، وظهر ذلك على ألسنة الشعراء والعلماء ، فألف كثير من الفرس الكتب فى مثالب العرب ، وأول من شجع على ذلك الخلفاء والأمراء والعرب أنفسهم ، فنحن نعلم أن العصبيات القبلية العربية التى نجح النبى فى إسكاتها قد بدأت تظهر بعده ولا سيما فى الدولة الأموية ، واستدعى هذا أن يطلب الخلفاء وأتباعهم من علماء الأنساب تأليف الكتب فى مثالب القبائل العربية التى كانت تناهضهم ، وكتب المفاخر فى مفاخر القبائل التى تناصرهم ، فلما برزت الشعوبية لمناهضة العربية وجدت فى كتب المثالب أصولا تحتذيها فى الطعن على العرب متفرقين ومجتمعين ، وإنا نجد فى كتب التراجم أسماء كتب فى مثالب العرب عامتهم أو قبائلهم لكبراء الرواة والأدباء والعلماء .

وقد شارك كثير من الشعراء الموالى قومهم فى ذكر مثالب العرب والتندر بهم حتى فى مجالس الخلفاء والأمراء العرب ، ومن ذلك ما ذكره أبو الفرج الأصفهانى ، قال : « دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى ، وبشار عنده ، وعليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابى : من الرجل ؟ فقالوا : رجل شاعر . فقال أمولى أم عربى ؟ قالوا : بل مولى . فقال الأعرابى : وما للموالى والشعر ؟ فغضب بشار ، وسكت هنيهة ، ثم قال : أتأذن لى يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ » فأنشأ يقول :

خليلى لا أنام على اقتسار ... ولا آبى على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عنى ... وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد المرء خزيا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن زاعية وراع ... بنى الأحرار ؟ حسبك من خسار !
وكنت إذا ظمئت إلى قراح ... تركت الكلب فى ولغ الإطار[١]
تريع بخطبة كسر الموالى ... وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدريها[٢] ... ولم تعقل بدراج[٣] النيار
وتنشح الشمال[٤] للابسيها ... وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا ... فليتك غائب فى حر نار

فقال مجزأة[٥] للأعرابى : « قبحك الله ! فأنت كسبت الشر لنفسك وأمثالك[٦] » .

واقد حذا أبو نواس حذو بشار فى التعصب للشعوبية والطعن على العرب ، وديوانه حافل بالسخر منهم . وما افتتاحه قصائده بمدح الخمردون مناجاة النيار إلا تعصب للشعوبية وليس تجديداً كما زعم أكثر من أرخوا عصره أو كتبوا فيه ، فأطنبوا فى الإشادة به ، وفواتح قصائده تنبىء عن سخره من مناجاة النيار أو بوجه أعم من العرب جميعا ، وإليك مثلا من عشرات الأمثلة قوله :

عاج الشقى على ربع يسائله ... وعُجْتُ أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد

لادر درك ! قل لى : « من بنو أسد ومن تميم ومن قيس ولفهما[٧] ؟
ليس الأعاريب عند الله من أحد[٨] ! »

(١) أنظر « كتاب العصا » من كتاب « البيان والتبيين » جـ ٢ ص ٤ — ١٠ طبعة السندوبى ، وراجع فى الشعوبية هذا الكتاب جـ ١ ص ٥٩ ، ٢٩٤ وجـ ٢ ص ٤ ، ٣٨ وجـ ٣ ص ٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٢ و « مجموعة رسائل البلغاء » جمعها الأستاذ محمد كرد على ومنها « كتاب العرب » لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ص ٢٦٩ و ٢٩٥ وهناك أخبار منثورة فى كتاب « الأغانى » للأصفهانى « ومعجم الأدباء » لياقوت وكتب التاريخ للبسوطة .

(١) الاطار حفرة حول البيت يجتمع فيها الماء عند المطر : فهو يريد أن يقول للأعرابى : إنك تشارك الكلب إذ تلغ مثله فى المياه الراكدة .

(٢) تدريها : تخطها وتخدعها لتصيدها .

(٣) يريد أنه لا يلحق القنافذ إذ يصيدها ، والدراج القنفذ .

(٤) الشمال : أكمة يتشح بها

(٥) أخطأ الأصبهانى فأسند القصة إلى مجزأة مع أن مجزأة استشهد فى فتح مدينة تستر قبل مولد بشار بنحو سنتين سنة (إتمام الوفاء للخضرى ص ١٠٠ ويوافقه الطبرى وابن خلدون وابن الأثير) وكان مجزأة رئيسا لقبيلة بكر بأمر عمر بن الخطاب فلما استشهد جعلها أبو موسى الأشعرى والى البصرة فى عهده لخالد بن المعمر السدوسى ، ثم ردها عثمان بن عفان لشقيق بن مجزأة بن ثور (البيان والتبيين جـ ٣ ص ٧٣ ، ٧٤ طبعة السندوبى) فلا بد أن القصة لشقيق لا مجزأة .

(٦) أغانى دار الكتب جـ ٣ ص ١٦٦ .

(٧) أى من ينتسب إليهما : وهو يقصد المروءة جميعا ، وقد عد الزمخشرى فى أساس البلاغة من المجاز « جاءوا ومن لف لفهم » واستشهد بقول الشاعر :
سيكفيكم أودا ومن لف لفها ... فوارس من جرم بن زبان كالأسد

(٨) ديوان أبى نواس ص ١٢٨ — ١٣٩ شرح وترتيب الأستاذ كامل

فقوله : « ليس الأعاريب عند الله من أحد » طعن صريح فى العرب جميعا : ولو مضينا فى الاستشهاد بشعره على ما نقول لضاق المكان ، وما دمنا بصدد موضوع خاص فلنضرب صفحا عن الشواهد ، وحسبنا هذا الشاهد .

فهذا الطعن الصريح وغيره وليد العصبية الفارسية عند أبى نواس ومن عاصروه من الموالى ، وكان عصرهم عصر انتصار للفرس على العرب ، فتمكنوا من التصريح برأيهم حتى فى بلاط الخلفاء والأمراء العرب ، ووافق ذلك ميلا فى مزاج أبى نواس وأمثاله المستهترين الذى لا يحفلون بسنن العرف والأخلاق فجروا فى هذا الضمار شوطا بعيدا .

وأصرح من بشار وأبى نواس قول المويد :

« أنا ابن المكارم من آل جم ... وطالب إرث ملوك العجم
فقل لبنى هاشم أجمعين : ... هلموا إلى الخلع قبل الندم
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز ... وأكل الضباب ورعى الغنم »

وقول أبى سعيد الرستمى :

« بهاليل غر من ذؤابة فارس
إذا انتسبوا لامن عربنة أو عكل
هم راضة الدنيا وسادة أهلها
إذا افتخروا لاراضة الشاة والإبل

ودون أولئك أبو الحسن[1] مهيار بن مرزويه الديلمى الذى أسلم على يد أستاذه الشريف الرضى فحسن إسلامه ، وظل بعد إسلامه حتى مات دون أن يظهر منه ما يدل على حنينه إلى ديانته القديمة (المجوسية) ؛ فهو — على الرغم من إسلامه ، وصلته القوية بالشريف الرضى — لم ينس أنه فارسى ، وأن قومه الفرس كان لهم مجد أعظم حتى من مجد العرب ، وأن ليس للعرب فضل إلا الدين ، وإليك أبياته المشهورة التى تغنى فى زماننا :

« أعجبت بى بين نادى قومها ... « أم سعد » فضت تسأل بى
سرها ما علمت من خلق ... فأرادت علمها ما حسبى
لا تخالى نسبا يخفضنى ... أنا من يرضيك عند النسب
قوى استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى « كسرى » على إيوانه ... أين فى الناس أب مثل أبى ؟
سورة الملك القدامى وعلى ... شرف الإسلام لى والأدب
قد قبست المجد من خير أب ... وقبست الدين من خيرنبى
وضممت الفخر من أطرافه ... سودد الفرس ودين العرب »

هذه صورة موجزة للشعوبية وبعض آثارها وأسبابها ، ولقد دفعت الشعوبية العجم جميعا ولا سيما الفرس على المحافظة على كل ما تستطاع المحافظة عليه من تراث فارس حتى المجوسية ، وقد أشرنا فى هذا المقال إلى الصلة بين الشعوبية والمجوسية ، وسنفصل إن شاء فى المقال الآتى القول فى هذه الصلة ، والقول فى المذاهب المجوسية التى أظهرها الزنادقة أيام المهدى العباسى ، وبيان أصولها القديمة عند الفرس القدماء ، لنعرف صلة مذاهب الزنادقة المحمرة والمبيضة بالمجوسية القديمة التى دان بها أهل فارس قديما ، ثم تفرقت مذاهب مختلفة ، وتطورت أطوارا جديدة على يد دعاتهم فرادشترا ومانى ومزدك .

محمد خليفة التونسى

(١) وقيل : أبو الحسين (وفيات الأعيان لابن خلكان) وانظر ترجمته أيضاً فى « كتاب المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم » لأبى الفرج الجوزى « ومعجم الأدباء » لياقوت ، مقدمة الجزء الاول من ديوانه (طبعة دار الكتب) للمرحوم أحمد نسيم

ظهر حديثاً كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ
أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة
وثمنه ١٥ قرشاً